With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"فَيِّرا" هو النصّ الأسبوعي الرابع من كتاب "بريشِيت" (سِفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المَقطع الثامن عشر وينتهي بالآية الرابعة والعشرين من المَقطع الثاني والعشرين.

اِسْتِجَابَةٌ لِلنِّدَاء

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

إنّ تاريخَ البشريّةِ المُبكر، كما تُصوّرهُ التوراة، هو سلسلةٌ من الخيباتِ المُتكرّرة. فقد منحَ اللهُ عزّ وجلّ الإنسانَ نعمةَ الحريّة، فما كانَ من البشرِ إلّا أن أساؤوا استخدامها. بدءًا من آدمَ وحَفّاه/حواء اللذَين أكلا من الثمرةِ المحرّمة، ومرورًا بقاينَ/قابيل الذي قَتَلَ أخاهُ هِفل/هابيل. حتّى استشرى العنفُ في الأرضِ، في زمنٍ قصيرٍ نسبيًا، فغلبَ على كلِّ ما فيها، كما ورد في الآية الثانية عشرة من المقطع السادس من سفر التكوين: "فَقَدْ أَفْسَدَ كُلُّ بَشَرٍ طَرِيقَهُ عَلَى الْأَرْضِ". لقد خلقَ اللهُ عزّ وجلّ نظامًا متناسقًا، فإذا بالإنسان يُحوّله إلى فوضى. ولم تقتصر شرورُ الإنسانِ على الزمن ما قبل الطوفان؛ بل إنّ بُناةَ برجِ بابل وقعوا فريسةً للغطرسةِ ذاتِها، إذ ظنّوا أنّهم قادرون على بناء برجٍ "رَأْسُهُ يُدَانِي السَّمَاءَ"، كما ورد في الآية الرابعة من المقطع الحادي عشر من سفر التكوين.

لقد فَشِلَ الإنسانُ في الاستجابةِ لنداءِ الله عزّ وجلّ، ولهذا دخلَ أفرهام/إبراهيم إلى المشهد الإنسانيّ الذي تُفصّله التوراة. غيرَ أنّنا لا نعلمُ، في بداية قصّته الواردة في التوراة، ما الذي كان مطلوبًا منه تحديدًا. فما نعلمُه هو أنّ الله عزّ وجلّ قد أمره أن يغادرَ أرضَهُ، ومولدَهُ، وبيتَ أبيه "إلى البلدِ الذي يُريه"، كما وردَ في الآية الأولى من المقطع الثاني عشر من سفر التكوين. لكننا لا نعلمُ ما الذي يتوجّب عليه القيامُ به هناك؟ وما هي رسالتُه؟ إذ لا تُجيبنا التوراة عن ذلك. فالصمتُ هنا مقصودٌ. فما الذي يجعل أفرهام استثنائيًا؟ وما هو الدورُ الذي سيؤدّيه؟ وما الذي يميّزه عن أن يكون مجرّد رجلٍ صالحٍ في زمنٍ فاسدٍ، كما كان نوح؟ وما الذي يجعله قائدًا وأبًا لأمّةٍ من القادة؟

لنحلّ هذا اللغز، علينا أن نسترجع ما كانت تُشير التوراة إليه في الصفحاتِ السابقة. فكما أشرتُ سابقًا، ربّما يكونُ المحورُ الرئيسيُّ لسفرِ التكوين هو فشلُ الإنسانِ في تحمّلِ المسؤوليّة. فآدم وحَفّاه لم يتحمّلا مسؤوليتهما الشخصيّة، إذ قال آدمُ: "المرأةُ هي من أعطتني"، وقالت حَفّاه، "الحيةُ هي من أغوتني". وكأنّهما بإجابتيهما يتنصّلانِ ممّا فعلاه، وكأنّهما لم يُدرِكا بعدُ معنى الحريّةِ، ولا ما تُوجِبُهُ عليهما من مسؤوليّة. أمّا قاين، فلم يُنكر مسؤوليته الشخصيّة، إذ لم يقل: "لم أكن أنا"، ولم يُلقِ باللوم على أخيهِ هِفل، بل أنكرَ شيئًا أعمق، وهو مسؤوليّته الأخلاقيّة، متسائلًا أمام الله: "أَحارِسُ أَخي

أَنا؟". وأخيرًا، فَشِلَ نوح، في اختبارِ المسؤوليّة الجماعيّة؛ فرغم أنّه كان رجلًا صالحًا في زمنٍ فاسد، إلّا أنّه لم يُؤثّر في أبناءِ جيله. لقد أنقذَ أهلَ بيته (والحيوانات)، لكنه لم يُنقذْ أحدًا غيرَهم، ولم يُحاولْ حتّى، كما يظهر من القراءة المباشرة للنصّ.

وإذا فهمنا هذا المشهد الذي فصّلته التوراة عن فشل الإنسان في تحمّل المسؤولية، فإننا نكونُ قد بدأنا بفهم شخصية أفْرهام، الذي يظهر لنا بجلاءٍ ما يُشير إلى كونه ممن يتحمّلون مسؤوليتهم الشخصيّة بشكلٍ كاملٍ. فحين نشبَ خلافٌ بين رعاة مواشيه ورعاة مواشي ابنِ أخيه لوط، أدركَ أفْرهام أنّ الخلاف لم يكن حدثًا عارضًا، بل نتيجةً لتزايد قطعان كلٍّ منهما وضيق الأرض الصالحة للرعيِ أمامها. لذلك، سارع أفْرهام إلى اقتراح حلٍّ سلميّ على لوط، كما ورد في الآيتين الثامنة والتاسعة من المقطع الثالث عشر من سفر التكوين:

"حتى قالَ أفْرهام لِلوطٍ، لا تَكُنْ خُصومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَلا بَيْنَ رُعَاتِي وَرُعاتِكَ، لأَنَّنا قَوْمٌ ذو قَرَابَةٍ؛ إِلَّا أنَّ جَميعَ البَلَدِ بَيْنَ يَدَيْكَ، انفَرِدْ عَنِّي، إِمّا يُسْرَةً فَأَنْيَمَنُ، أَوْ يُمْينَةً فَأَنْيَسَرُ".

لم يُصدر أفْرهام أيّ حُكم، ولم يسأل: من المُخطئ؟ ولم يُفكّر: من الرابح في هذه القسمة؟ بل أعطى لابنِ أخيهِ حُريّةَ الاختيار. لقد فَهِمَ أنّ هناك مشكلةٌ، فتصرّف. وهكذا يتجلّى تحمّل المسؤولية في أبهى صوره: فلا لوم، ولا تأجيل، بل فعل.

يتحدّث المقطع التالي من سفر التكوين عن حربٍ محليّة، يُؤسَر فيها لوط مع مجموعةٍ من الأسرى. ولمّا بلغَ الخبرُ أفْرهام، لم يتردّد؛ فجمعَ رجاله، وانطلقَ مطاردًا الغُزاة، وقاتَلَهُم حتّى أنقذَ لوط وجميع مَن كانوا معه، ثمّ أعادهم إلى ديارهم سالمين. وقد عَرَضَ عليه ملكُ سدوم غنائمَ الحرب تعبيرًا عن امتنانه، فأبى أفْرهام أن يأخذَ منها شيئًا.

إنه مقطعٌ مُدهش، لأن الصورة التي يرسمُها لنا عن أفْرهام ليست تلكَ المعتادة - صورة الراعي المتنقّل وسطَ الصحراء - بل صورة رجلٍ ينطلق بقوّةٍ وعزمٍ حين تقتضي الأخلاقُ ذلك. ولفهم هذا المقطع بشكلٍ أفضل، علينا أن نقارنه مع قصّةُ قاين. فبينما أنكرَ قاين مسؤوليّته الأخلاقية وسأل: "أَحارِسُ أَخي أَنا؟"، قَدَّمَ أفْرهام، في تعامله مع لوط، الجوابَ البليغ: نعم، أنا حارسُ أخي (أو في هذه الحالة ابنِ أخيه). لقد أدركَ أفْرهام فورًا طبيعةَ المسؤوليّة الأخلاقيّة، ولم يتذرّع بأنّ لوط هو من اختار أين يسكن، وهو مَن عرّض نفسَه للمخاطر، ولم يقل: "إنّ سلامته هي مسؤوليته هو، لا مسؤوليتي أنا". بل انطلق مسرعًا لتخليصه من الأسر.

ثمّ في النصّ الأسبوعي قَيْرا، نصل إلى لحظةٍ عظيمة، فلأوّل مرّةٍ في التوراة، يتجرّأ إنسانٌ على أن يُعارِضَ أحدَ أحكامِ اللهِ عزّ وجلّ مناشدًا إيّاه بالتراجع عنه. فكما يروي النصّ، كان الله على وشكِ إنزال العقاب الشديد بأهل سدوم، غير أن أفْرهام، الذي خشي أن يكونَ مصيرُ المدينة الهلاك والتدمير، تقدَّم بين يدي الله عزّ وجلّ، كما ورد ابتداءً من الآية الثالثة والعشرين وانتهاءً بالآية الخامسة والعشرين من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين، وقال له:

"أَيَقِينًا تَسِيفُ الصَّالِحَ مَعَ الطَّالِحِ؟ لَعَلَّهُ يُوجَدُ فِي الْبَلَدِ خَمْسُونَ صَالِحًا، أَيَقِينًا تَسِيفُهُمْ وَلاَ تَصْفَحْ عَنْهُمْ، لِقِبَلِ الْخَمْسِينَ صَالِحًا الَّذِينَ فِيهِمْ؟ أَنْتَ مُعَاذٌ، مِنْ أَنْ تَصْنَعَ مِثْلَ هذَا الْأَمْرِ، أَنْ تُهْلِكَ الصَّالِحَ مَعَ الطَّالِحِ، وَيَكُونَ الصَّالِحُ كَالطَّالِحِ، أَنْتَ مُعَاذٌ، أَحَاكِمُ جَمِيعِ الْعَالَمِ لاَ يَعْمَلُ بِالْحُكْمِ؟".

ويا له من خطابٍ مُذهِلٍ! فكيف لإنسانٍ فانٍ أن يكلّم الله عزّ وجلّ بهذا الشكل؟ والجواب المختصر على هذا السؤال، هو أنّ الله عزّ وجلّ أشارَ برفقٍ إلى أنّ أفْرهام ينبغي عليه أن يفعل ذلك، وكأنّه دعاهُ ليقفَ بين يديه ويُناشده.

فلنتأمّل ما يقوله الله عزّ وجلّ ابتداءً من الآية السابعة عشرة وانتهاءً بالآية الواحدة والعشرين من المقطع نفسه من سفر التكوين:

"فَقَالَ اللهُ: أَمُخْفِي أَنَا عَنْ أفْرهام، مَا أَنَا صَانِعٌ؟ وَأفْرهام سَتَكُونُ مِنْهُ أُمَّةٌ كَبِيرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَيَتَبَارِكُ بِهِ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، وَأَنَا مُعْرِفُهُ، لأَنَّهُ سَيَأْمُرُ بَنِيهِ وَآلَهُ مِنْ بَعْدِهِ... فَقَالَ اللهُ: صُرَاخُ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ عَظُمَ، وَخَطِيئَتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا، أُورِدُ أَمْرًا مُوجَّلًا، وَأَنْظُرُ هَلْ كَصُرَاخِهِمْ الْوَاصِلِ إِلَيَّ، صَنَعَ جُمْلَتُهُمْ أَمْ لَا".

هذه الكلمات، "أمُخفي أنا عَنْ أفرهام ما أنا صانع؟"، ليست مجرّد تساؤلٍ بلاغي، بل إشارةٌ صريحة بأنّ الله أراد من أفرهام أن يتكلّم، أن يتدخّل ليدافع عن العدالة، وإلّا، فلماذا قالَ تلك الكلمات؟

لا يُمكن فهمُ قصّة أفرهام إلّا على ضوءِ قصّة نوح. فهُناك أيضًا، أنبأ الله عزّ وجلّ نوح مسبقًا بأنّه على وشك أن يُنزِلَ العقاب بالعالم، كما ورد في الآية الثالثة عشرة من المقطع السادس من سفر التكوين: "قالَ اللهُ لِنُوح: قَدْ دَنَا أَجَلُ كُلِّ بَشَرٍ بَيْنَ يَدَيَّ، إِذِ امْتَلَأَتِ الْأَرْضُ ظُلْمًا مِنْ قِبَلِهِمْ، وَأَنَا مُهْلِكُهُمْ مِنْهَا".

لكنّ نوح لم يعترض. بل على العكس، تُخبرنا التوراة ثلاث مرّات بأنّ نوح "صَنَعَ كَجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ"، كما ورد في سفر التكوين، في الآية الثانية والعشرين من المقطع السادس، وفي الآية الخامسة من المقطع السابع، وفي الآية التاسعة من المقطع السابع:

"فَصَنَعَ نُوح، كَجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ، كَذَاكَ صَنَعَ".
"وَعَمِلَ نُوح كَجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ".
"دَخَلُوا إِلَى نُوح، إِلَى التَّابُوتِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ".

لقد قبِلَ نوح الحكم، أما أفرهام، فقد واجهَه.

كان أفرهام يعي تمامًا المبدأ الثالث، وهو المسؤوليّة الجماعيّة. إذ لم يكن أهلُ سدوم من ذويه، ولم تربطه بهم أيُّ صلة قرابةٍ تدفعه لإنقاذهم كما فعل مع لوط. ومع ذلك، صلّى من أجلهم، لأنّه أدرك مبدأ التضامن الإنسانيّ، الذي عبّر عنه الشاعر الإنجليزي وأحد رجال الدين في كنيسة إنجلترا في القرن السابع عشر، جون دون، بقوله: "لا أحدَ من الناسِ جزيرةٌ بمفردِه... موتُ أيّ إنسانٍ يُنقصُ منّي، لأنّي منخرطٌ في جماعةِ البشر"[1].

لكن، يبقى السؤال مطروحًا: لماذا دعا الله عزّ وجلّ أفرهام ليُعارض حكمه على سدوم؟ هل كان لدى أفرهام علمٌ ليس عند الله؟ لا شكّ أن ذلك مستحيلٌ وغير منطقيٍّ، فلا يمكن للإنسان أن يعلم شيئًا لا يعلمه الله. والإجابة بلا شكّ هي أن أفرهام كان مُقدّرًا له أن يُصبحَ المؤسِّس لدينٍ جديد والنموذج الأول الذي يحتذي به أتباع هذا الدين، وهو دينٌ لا يُدافعُ عن الوضع البشريّ القائم، بل يتحدّاه. ولذلك، كان لا بدّ لأفرهام أن يتحلّى بالشجاعة اللازمة للاعتراضِ على حكم الله ومناشدته لتغييره، من أجل أن يجرؤ أبناؤه من بعده على تحدّي حُكّام الأُمم، كما فعلَ موشيه/موسى والأنبياء من بعده.

فاليهود لا يقبلونَ بالعالَمِ كما هو، بل يُعارضونه باسمِ العالَمِ الذي ينبغي أن يكون. وإنّ هذه لحظةٌ حاسمة في تاريخ البشريّة، إذ شَهِدَت ميلادَ أوّلِ ديانةٍ تحتجُّ على حال العالم، وتقاومه، بدلًا من التسليمِ به.

لم يكن أفرهام قائدًا تقليديًّا بالمعنى السياسيّ؛ فهو لم يحكم شعبًا، لأنّه في تلك اللحظة، لم يكن هناك شعبٌ ليقوده. لكنه كان النموذجَ الأوّل للقائد، كما تفهم دوره الديانة اليهوديّة، فالقائد هو مَن يتحمّلُ المسؤوليّة، ومَن يُبادر، ومَن لا ينتظرُ غيرَه ليتحرّك. وقد قالت التوراة عن نوح، كما ورد في الآية التاسعة من المقطع السادس من سفر التكوين: "وكان نوح رجلًا صالحًا صَحيحًا كَامِلًا في أجياله، في طاعةِ اللهِ سلكَ نوح".

---

1. John Donne, *Devotions Upon Emergent Occasions*, Meditation XVII.

أما أفرهام، فقد قال له الله عزّ وجلّ، كما ورد في الآية الأولى من المقطع السابع عشر من سفر التكوين: "سِرْ أمامي وكنْ تامًّا". أي كُنْ قائدًا، وسِرْ في المقدّمة، مُتحملًا مسؤوليتك الشخصية والأخلاقية والجماعية. فالقائد لا يكتفي بأن يكون صالحًا، بل يتقدّم طَوعًا ليحملَ العبءَ الأخلاقيّ والمجتمعيّ. وإنّ الديانة اليهوديّة، في جوهرها، هي نداءُ الله إلى الإنسانِ ليتحمّلَ المسؤوليّة.

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion*